إن المرأة في استكشافها الرجل لكمن يجوس خلال الغابة المرهوبة ليهتدي أولًا وآخرًا إلى موطن الرهبة منها ووسيلة الطمأنينة إلى تلك الرهبة، ثم يرتع في صيدها وثمرها ويشبع من مظاهر العظمة والفخامة فيها.

وإن الرجل في استكشافه المرأة لكمن يجوس خلال الروضة الأريضة ليهتدي إلى مجتمع الظل والراحة والمتعة والحلاوة بين ألفافها وثناياها؛ فهو يستكشفها ليعرف أحلى ما فيها وهي تستكشفه لتعرف أرهب ما فيه، ثم تصبح الروضة روضة وغابة، وتصبح الغابة غابة وروضة، ويقوم حواليهما سورٌ واحدٌ يشعران به إذا خرجا إلى الدنيا، ولا يشعران به وهما بنجوةٍ منها.

وكان همام وسارة يتكاشفان كل يوم ولا يخفيان أنهما يتكاشفان، بل يتحدثان بما يعنُّ من شأنها وشأنه كأنهما رحَّالتان في نزهةٍ طويلةٍ، يشتركان في مراجعة عمل النهار كلما سكنا إلى ظلال الخيمة في ظلام المساء.

كان يراقبها في نفسها ويراقبها في نفسه، كان يرى المرأة المرحة الطروب وهي تلهو وتعبث، ويرى المرأة الكسيرة المطواع وهي تلتمس الأمان والعزاء، ويرى الإنسانة الفطرية وهي تطيع الغريزة وتلبس «دورها» على مسرح الطبيعة بين نباتها وحيوانها ومكانها وأهوائها، ويرى المرأة الذكية وهي تقرأ النثر والشعر وتنتقد الصور المتحركة، ويرى المرأة العصرية وهي تتغلب على امرأة الجيل الغابر في ميدان، وتخضع لها وتنهزم أمامها في ميدان، ويرى من وراء ذلك جميعه وفي خلال جميعه المرأة الخالدة التي لا تتحول ولا تتبدل، والأنثى السرمدية التي يهمها من «الذكر» الحماية والجاه قبل كل شيء وبعد كل شيء، ولا يهمها العقل والرجحان والفضائل والمناقب إلا لأنها وجهٌ من وجوه الحماية والجاه.

لقد أكبرته كثيرًا وهي تسمع الثناء عليه في مجالس أناسٍ من عِلية الناس لا يعلمون ما بينهما من صلة، ولا يستريحون إليها لو علموها.

ولقد أكبرته كثيرًا وهي تقرأ له أسفار النوابغ من أساطين الأقدمين وفحول المحدثين الغربيين، وهو يعقب على ما يسمع بكلمةٍ هنا وكلمةٍ هناك، ويناقش لها ما يبدو أنه حقيق بالمناقشة، وليست هي من الجهل بحيث يخفى عليها سداد مناقشاته، وليست هي من قلة الثقة به بحيث تغلق المنافذ على ذهنها مكابرةً وتقليدًا كما يفعل العامة الجامدون، وليست هي من العلم بحيث تفهم أن نوابغ الغرب كائنةً ما كانت أقدارهم وبالغًا ما بلغ صيتهم واشتهارهم خاضعون للنقد قابلون للتشريح والتصحيح، بل هي